علم المستقبليات وإشكالية النزعة الدينية

الدكتور عبد القادر بخوش

أستاذ محاضر ، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة

ملخص

مـــع الثورة العلمية الحديثة ازدادت الرغبة في كشف أسرار المستقبل على جميع الأصعدة المعرفية، وفي المجالات الحديثة. الأمر الذي حفز الباحثين على إرساء مـــناهج لدراسة المستقبل، وتصنيفه داخل إطار العلوم. واصطلح على تسميته"بعلم المستقبليات"؛ وهو العلم الذي يبحث إشكالية أثر النزعة الدينية في توجيه البحوث المستقبلية... .

Abstract

By the scientific revolution, the desire to discover the future secrets has increased upon all levels of knowledge among modern fields, this has strongly impelled researchers to transmit their study results about the future and to classify it within the peaceful frame.
The development of futuristicology had been accepted in order to include the research on one Important problem about the effect religious tendency to direct these future studies... .

مدخل إلى علم المستقبليات

إذا كان المستقبل هو كشف الحجب عما قد يتجلى للإنسان من معرفة يبني من خلالها استراتيجية لمواجهة المستجدات ،فإن معرفة كهذه تصبو إلى اكتشاف الآفاق المستقبلية خليقة بأن تبعث إلينا ولجديرة أن تكون محور بحوث معمقة وتفكير جاد.

وإذا كان التاريخ الإنساني لم يخل من الحديث عن الرغبة الملحة للإنسان في استشراف الآفاق المستقبلية وتطلعه الدائم لمعرفة أسرار الغد،إلا أن تغلغل وتسلل الأفكار البدائية وما تحمله من أساطير قد عكرت الأجواء وأضحت أية معرفة من هذا القبيل ضربا من الأساطير و التخمينات.

ومع الثورة العلمية الحديثة ازدادت الرغبة في كشف أسرار المستقبل على جميع الأصعدة المعرفية وفي شتى المجالات العلمية الحديثة مما حفز ذلك الباحثين على إرساء مناهج علمية لدراسة المستقبل ، وتصنيفه بذلك داخل إطار العلوم واصطلح على تسميته علم المستقبليات.

ويأتي في طليعة هؤلاء الأستاذ **أفريه كورنان** الذي يعد بحق مكتشف علم المستقبليات بلا منازع وذلك بالاشتراك مع فريق المركز الدولي للمستقبلية في الستينات بفرنسا، ولقد تولى تطبيقه فيما بعد إبان قيامه بالتدريس بالجامعة الأمريكية . تحصل على جائزة نوبل في الطب عام 1956 لأعماله الخاصة بدراسة عن داخل القلب فتقلد منصب أستاذ شرفي بجامعة كولومبيا، وألف العديد من الكتب العلمية،والبحوث المتعلقة بأخلاقيات العلم وتطوره1.

تمر الدراسة المستقبلية عبر مرحلتين: تحليل بالغ التوسع للنظام كما هو كائن في فترة معينة ومن منطلق هذا التحليل بناء صور للمستقبل تكون مرغوبة وممكنة على

أن نحـــاول أثـــناء دراسة النظام الراهن اكتشاف ما اسماه الأستاذ **بيرماسيه** الحقائق المستقبلية وبهذا توصف المستقبلية بالإستراتيجية طويلة المدى2.

أفـــرزت الـــبحوث المستقبلية حقيقتين مزعجتين :لهما بالغ الأثر على شتى أنواع العلوم والمعارف.

أولا :نهاية الثبات

يعـــيش العـــالم اليوم على مشارف الألفية الثالثة ويمر بمنعطف خطير لبروز ثورة معلوماتـــية وتقنية جبارة ، تقتلع القيم والثوابت والمعطيات التاريخية. إن موجات التغـــيير تكتـــسح المجتمعات المتقدمة صناعيا بعنف متفاقم : وسرعة مذهلة وهي تحوي في طياتها أزمات عميقة يستعصي علاجها.

شـــاع عـــند العلماء أن العصر الذي نحياه يمثل ثورة صناعية ثانية، وهي عبارة تحـــاول تسليط الأضواء عن سرعة التغيير ، ومع هذا فإن هذه العبارة غير دقيقة في بـــيان ماهية الواقع الذي نحياه لأن ما يحدث الآن هو بأي معيار أكبر و أعمق من الثورة الصناعية، وثمة وجهة نظر تلقي تأييدا كبيرا تؤكد أن التغيير المعاصر لا يمكن تعريفه

بأقل من أنه يمثل ثاني التحولات العظمى في تاريخ البشرية ، وهو تحول أكبر من أن يقـــارب في ضخامته أولى هذه التحولات العظمى في مسار التاريخ.ونعني به انتقال الجـــنس البـــشري مـــن البربرية إلى المدنية فالأستاذ **هوبرت ريد** فيلسوف الفنون يـــتحدث في دهـــشة عـــن انقلاب فكري رهيب ، ويدعو إلى التنقيب في الآثار التاريخية لنعثر على شبيه، ومن الممكن أن يكون أقرب تغييرات الماضي شبها به هو ما حدث بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الجديد.

ويذكـــر الأســـتاذ **س كرام** بأننا في القرن العشرين نختتم فترة من تاريخ البشرية أطـــولها خمـــسة آلاف عام، إننا لسنا كما يقول **شبنجر** في وضع روما لدى قيام المـــسيحية في الغرب،إننا في وضع شبيه بإنسان ما قبل التاريخ عندما فتح عينيه منذ خمسة آلاف سنة على دنيا جديدة تماما3.

ومن أدق ما قيل في هذا الشأن كما عبر به رائد علم الاقتصاد **كينيت بولنج** عن وجهـــة نظره بأن وقتنا الحاضر يشكل نقطة تحول خطير في تاريخ الجنس البشري فـــإن الزمن الذي يقسم تاريخ الجنس البشري إلى قسمين متساويين، زمن ماثل في الذاكرة الحية، فالقرن الحالي يمثل خط الوسيط الذي يقسم تاريخ الجنس البشري، ويـــؤكد ذلـــك بقوله:لقد ولدت في منتصف التاريخ البشري لأن ما حدث منذ ولدت حتى الآن يماثل تقريبا كل ما حدث قبل أن أولد4.

ويحاول بعض علماء المستقبليات أن يضعوا الدين في مأزق لأنه لا يستطيع مقاومة هـــذا التغيير الذي يتعدى إلى القيم الدينية والأخلاق، وأن تغيير القيم يحدث الآن بأســـرع مما حدث في أية فترة سابقة من التاريخ، وهذا ما يؤكده **ألفين توفلر** في قوله :"إن اللاثابت والتغيير الدائم قد أصبح سمة غالبة لكل نظم القيم لدى الأفراد والجماعـــات وأنه أيا كان مضمون القيم التي ستصعد لتحل محل قيم عصر التصنيع فإنمـــا ســـتكون أقصر عمرا وأسرع زوالا من قيم الماضي وليس أن يعود إلى حالة الثـــبات فيما يخص القيم بل على العكس فإننا نستطيع أن نتوقع في المستقبل تغييرا أسرع في القيم"5.

ثانيا: مرض المستقبل

كـــان للـــبحث الذي نشره عالم المستقبليات **ألفين توفلر** بالغ الأهمية في بيان ما يصيب الأفراد من تشتت وانهيار عندما يفرض عليهم الكثير جدا من التغيير خلال

القـــصير جدا من الزمن ، ويعبر **توفلر** عن ذلك بقوله:" لقد استهواني هذا المفهوم حـــتى اقتنعت به فأنفقت السنوات الخمس التالية في ارتياد عشرات من الجامعات ومراكـــز الـــبحث والمعامل والمؤسسات الحكومية وقرأت أعدادا لاحصر لها من المقـــالات والأوراق العلمية وقابلت مئات من الخبراء في مختلف النواحي المتفرعة على عملية التغيير التي تعالج مسائل السلوك وموضوعات المستقبل وعلماء حائزون علـــى جائزة نوبل و أطباء ورجال أعمال وفلاسفة وقد أدلى كل من هؤلاء برأيه فيما يهمه من جوانب التغيير وكشف كل منهم عما يحسه من هواجس فيما يتصل بالتكيف ، ومخاوف تجاه المستقبل".

وينهي **توفلر** دراسته بهذه النتيجة في قوله:" ولقد خرجت من هذه التجربة بحقيقة مـــزعجة للغايـــة اتـــضح أن صدمة المستقبل لم تعد ذلك الخطر البعيد المنتظر بل أصبحت بالفعل مرضا حادا تعاني منه أعدادا متزايدة كل يوم، مرض يتخذ حالة سيكولوجية يمكن أن نعبر عنها بمرض التغيير"6.

ولا نـــبالغ إذا قلنا إن تخوفا كبيرا من المستقبل من قبل الباحثين بلغ ذروته ، وقد عـــبر أحد المختصين عن هذه بقوله: "وإن كنت أنظر الأشياء بمنظار أسود فذلك لأني لا ألمـــح علاقـــة واحـــدة واعدة تسمح لي بتصور إمكانية لأسلوب حياة مع المـــستقبل: التشوهات التكوينية والمخ الوراثي:الذرة، القتل بدافع الحمه، الأجهزة التعويـــضية والأعضاء المزروعة، والرجل السلعة أو الذي يتاجر فيه سوف يتحول إلى حـــثالة كالـــسلع التجارية تماما" ويضيف قائلا:" وأنه الآن لم يعد هناك أنبياء وفلاســـفة ولا شعراء فقد دفنت الفنون والإنسانيات ويعطي الصورة أكثر وضوحا ،بحيث أنه بالإمكان أن تكون هناك تجارة للأذان البشرية فعلى مدى عشر سنوات سيصبح الأمر عاديا روتينيا وحرفة"7.

إن علمـــاء اليوم يعتريهم إحساس بأن كل شيء يتغير بسرعة فائقة وهم في حيرة دائمة لعجزهم عن مواكبة آخر التطورات في مجالات اختصاصهم ، ولا يكاد يخلو مؤتمر أو ملتقى دون الإشارة لذلك التحدي الذي يمثله التغيير، وصعوبة التحكم فيه فضلا عن التكيف معه.

ولا عجب إذ يعتقد البعض من الباحثين في المستقبليات أن البشرية لا مفر لها من الانتحار كما يذكر **شرجاف** ويحتمل أن تعبر الانتحارات الجماعية عن صورة من الصور المستقبل و تعكس وجها من الوجوه فيه.8

هـــذا إذا علمنا أن الطب النفسي عجز في علاج هذه الأزمات بل ذهب بعضهم إلى درجـــة تحملـــه المسؤولية وعدم تكيفه مع الأوضاع الجديدة ويذكر الأستاذ **شرجاف** بأن التحاليل النفسية خلقت بلا شك عددا من التعساء يزيد عما كان في الماضـــي، وأضحت الغالبية الأمريكية مجنونة نظرا لضآلة عدد الذين يعدون أنفسهم طبيعيين.

وقـــد اتخـــذت الجامعـــات الأمريكية لمجابهة هذا المرض محللين نفسانيين، أضحى الطالب الذي لا يتردد على العيادة النفسية بالجامعة مرة ينظرون إليه بارتياب.9

وكـــان من المفروض أن يوظف الدين كمنقذ للإنسان من هذه الوضعية المزرية، ويحاول أن يجد حلا لكل هذه الأزمات وفق المنظور الديني.

بروز النزعة الدينية في الدراسات المستقبلية

وتـــبعا لـــنا تقدم من عجز الدراسات النفسية في تقديم العلاج الشافي مقابل كل ذلـــك بدأت التفاسير الدينية تطفو على السطح وتطرح نفسها بقوة كبديل وملاذ لهـــذه المجتمعات التائهة ، تم كل ذلك وفق خطة مبرمجة شاملة اتحدت فيها العقائد

اليهودية والمسيحية، وشكلت بذلك منظومة كهنوتية تحت إسم الصهيونية المسيحية وأضحت أغلبية الكنائس الغربية تدين بها.

وبـذلك لم يجـد علماء الدراسات المستقبلية حرجا مثل **ميشيل سالون** أو العالم الكيميائـي الشهير **تارجيف إروين** في ترديد مقولة العودة المظفرة الثانية للمسيح ، ونـصوص مـن سفر الرؤيا من العهد القديم كمرجعية مهمة لمعرفة المستقبل . إن علاقـة الدراسـات المستقبلية والإيمان بهذه العقائد المسيحية واليهودية هي علاقة مباشـرة ذلـك أن الكنيسة الغربية تعلم مريديها أن من واجب الإنسان المؤمن أن يوظـف كـل إمكاناتـه وقدرته لتحقيق إرادة الله ، وإن الله يختار منه الناس من يـؤهلهم ويمكنهم من القيام بهذا الجور المساعد وتعتقد هذه الكنيسة الغربية والتي تحاول أن

تفـرض هـذه العقيدة على جميع بأن للعودة الثانية للمسيح شروطا منها قيام دولة صهيون واستيلاء اليهود عليها10.

في إطار هذا الإيمان يأتي العمل على إقامة دولة إسرائيل و في إطار هذا الإيمان يأتي العمـل المـشروع على تجميع اليهود في إسرائيل والتزاما بهذا تتعطل كل إمكانية الـسلام بـين العرب واليهود وتتواصل حالة الحرب في المنطقة حتى يقع الانفجار الكبير الذي لا بد منه لتحقيق الإرادة الإلهية بالعودة الثانية للمسيح.

وتـبعا لـذلك يمكن القول عند البعض أن هذا الكلام مجرد هلوسة دينية، ولكن عندما يكون من بين المؤمنين به إيمانا شديدا وصادقا شخصيات ذات وزن سياسي كبيرا فهو الكارثة بعينه.

ولعل أسطع مثال عن التوظيف الديني المتحيز للدراسات المستقبلية نظرية التصادم بـين الحـضارات **لصموئيل هانتجتون** الذي نشر مقالته صدام الحضارات في مجلة

الشؤون الخارجية الأمريكية في 1993 وهي مجلة وثيقة الصلة بالدراسات المستقبلية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ذاع صيت الأطروحة وصاحبها الذي آلت إليه مسؤولية إدارة معهد **جن أولين** للدراسات الإستراتيجية بجامعة **هارفاد** الشهيرة وقد كان لتضلعه في الدراسات الإستراتيجية والمستقبلية وتفانيه في هذا النوع من التخصص وتألقه بصفة خاصة أن أسندت إليه مابين عامي 1977و 1978رئاسة قسم التحليل والاستشراف بمجلس الأمن القومي الأمريكي.11

وقد أضفت سمعة صموئيل العالمية وتاريخه العلمي كواحد من الإستراتيجيين أهمية مضاعفة على أطروحته ذات العنوان الاستفهامي هل هو صراع بين الحضارات؟

تقوم أطروحة التصادم بين الحضارات على أن الصدام بين الحضارات هو الذي سيهمن على السياسات الدولية ويشكل الحلقة الأخيرة من تطور الصراع في العالم الجديد ،باعتبار أن الانقسامات الكبرى بين بني البشر وبؤر التوتر سوف تكون ثقافية في الأساس.

يقول **صموئيل هانتجتون:**"والفرض الذي أقدمه هو أن المصدر الأساسي للنزاع في هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول ، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا،وستظل الدول الأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية،لكن المنازعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم مجموعات لها حضارات مختلفة ويسيطر الصدام بين الحضارات على السياسة الدولية .ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل، وسيكون النزاع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور النزاع في العالم الحديث".12

ويعـــتقد **صـــاموئيل هانتجتون** في دراسته المستقبلية أن الهوية الثقافية ستكسب مزيدا من الأهمية في المستقبل وسيتشكل العالم بقدر كبير نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثمـــان حضارات فاعلة، وستحدث أهم المنازعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى. 13

ولتعزيز فكرته هذه ،وزيادة في تدعيمها يورد **هانتجتون** مجموعة من العوامل، من أهمها:

- شكلت الفروق بين الحضارات الخطوط الفاصلة الجوهرية،ويأتي الدين في طلـــيعة هذه الفروق ،وتاريخ الشعوب شاهد على أن هذه الفروق زجت بالحضارات في أطول المنازعات وأشدها ضراوة.
- بعـــد أن أضحى العالم صغيرا،باتت التفاعلات بين شعوب الحضارات في الـــتفاقم وأســـفرت هذه التفاعلات على ارتفاع درجة وعي الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بين الحضارات.
- تهدف الإجراءات الاقتصادية الحديثة وسياسات التغيير الاجتماعي الجارية إلى فـــصل الـــشعوب عـــن هويات محلية ، علاوة على إضعاف الدولة القطرية،وفي جزء كبير من العالم تحرك الدين ليملأ هذا الفراغ على شكل حـــركات عـــرفت بالحركات الأصولية.فإحياء الدين يوفر أساسا للهوية والتزاما يتجاوز الحدود القطرية،ويوحد الثقافات.
- يـــتفاقم الوعـــي الحضاري جراء الدور المزدوج الذي يقوم بالغرب، فمن جهـــة يمتلك الغرب ناصية القوة والنفوذ في الوقت نفسه، وربما نتيجة لهذا الواقـــع تلـــوح في الأفق صيحات تدعو إلى العودة إلى جذورها الحضارية الخاصة.

فـــلا غرو أن نجد في الوقت الراهن غربا في أوج قوته، بات يجابه في الوقت نفسه أطرافا غير غربية يحدوها الأمل في تشكيل العالم وفق أساليب غير غربية، لا تنقصها الإرادة والإمكانات لتحقيق ذلك.14

وانطلاقـــا مـــن افتراضه أن الاتجاه الجديد للسياسة العالمية في المستقبل سيمثل في الـــصراع بين الغرب وبقية العالم ، وردود فعل الحضارات غير الغربية على السلطة والقيم الغربية.

يـــتوقع **صموئيل** أن بؤرة مركزية للصراع في المستقبل سوف تكون بؤرة صراع بـــين الغـــرب من جهة وبين عدد من الدول الكونفوشيوسية والإسلامية من الجهة المقابلة.

ويخلـــص المفكـــر الأمريكي إلى أن مصلحة الغرب على المدى القصير تكمن في العمـــل علـــى تحقـــيق قدر أكبر من التعاون والتعايش داخل حضارته،خاصة بين العنصرين الأوروبي والأمريكي الشمالي، وإدماج مجتمعات قريبة لثقافات الغرب في كـــل مـــن أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية وتوطيد علاقات التعاون مع كل من روســـيا واليابان ومنع تصاعد النزاعات المحلية داخل الحضارات إلى حروب كبيرة، والحـــد مـــن توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية و الكونفوشيوسية واستغلال الخلافـــات والنزاعات بين هذه الدول فيما بينها، وتقديم المساعدات للمتعاطفين مع القيم والمصالح الغربية في الحضارات الأخرى، وتقوية المؤسسات الدولية التي تعكس المصالح والقيم المشروعة للغرب.

أمـــا علـــى المدى الطويل ، فيشدد على أهمية قيام الغرب باحتواء الحضارات غير الغربية الحديثة، التي باتت قوتها قريبة من قوته، وإن كانت قيمها و مصالحها تختلف

بصورة كبيرة عن قيمه ومصالحه، وهو ما يقتضي من الغرب أن يحتفظ بقوته الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه بالنسبة لهذه الحضارات.

وعليه أن يكتسب فهما أعمق للتفاعلات الدينية والفلسفية الأساسية التي تحدد البنية التحتية التي تقف عليها الحضارات ، والطريقة التي ترى بها الشعوب هذه الحضارات مصالحها.15

إن المتأمل لأطروحة صدام الحضارات يلمس تلك الفكرة الباطنية التي يبثها **هانتجتون** في نظرته والتي تمليها نظرته الصهيونية ، وهي أن الأمر سينتهي حتما بصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

والمقال لا يطرح هذه الفكرة مباشرة بل يبدأ بإقرار مبدأ النهوض الحضاري في شتى بقاع العالم ، حيث يزداد الوعي بالذات لدى كل مجموعة بشرية تجمعها عناصر موضوعية مشتركة، ومع تنامي هذا الوعي تنشأ عملية التمايز عن الآخر، وربما الاختلاف معه، نتيجة وجود فروق ليس فقط حقيقية، وإنما أساسية لا يمكن تجاهلها.

وبعد استعراضه للأسباب التي تدفعه لتوقع مرحلة من صراع الحضارات يتحول مقال **هانتجتون** إلى بحث معنى الغربي الإسلامي الذي يراه النتيجة النهائية لما يسميه بالاصطفاء الحضاري، الذي أفصح عن نفسه في حرب الخليج.شأنه في ذلك شأن جميع المقالات المتشنجة التي لا هم لها إلا إثارة ما يعرف بالإحياء الإسلامي وتهديده للغرب و حضارته. ومع أنه يرى إمكانية احتواء كثير من البلدان المنتمية إلى حضارات غير غربية ، وراغبة في الانضمام إلى الحضارة الغربية مثل المكسيك وكثير من البلدان اللاتينية. فإنه بالمقابل يرى أن البلدان الإسلامية التي عبرت عن رفضها للحضارة الغربية، واستغلت في رأيه آليات الديموقراطية الغربية للتعبير عن رفضها

للغـــرب يصعب أن تندمج مع حضارته، ولكنها بإمكانها أن تتعاون مع حضارات أخرى رافضة للغرب، مثل الكونفشيوسية التي تخير لها نموذجين هما الصين وكوريا الشمالية.16

إن **هانتجتون** ينطلق من فكرة جوهرية أن الصراع سيكون حلقة تمر بها الحضارات في قمـــة نهوضـــها حتى تصل إلى درجة التعايش الذي يدرك خلالها كل طرف أن العـــالم لا يمكـــن أن يكون حضارة واحدة متجانسة ، وإنما هو مكان التقاء عدة حضارات، وإن كان **هانتجتون** لم يعن بتأكيد أن هذه النهاية ستنسحب أيضا على الصراع الغربي الإسلامي، بقدر ما عني بتخصيص الجانب الأكبر من المقالة للمرحلة الصراعية بين الغرب والإسلام.

وهـــنا يتضح بأن الفكرة الباطنية التي يبثها هانتجتون أن الأمر سينتهي بصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية،كما كان الحال حوالي 1300سنة.

لـــسنا هنا في حاجة لرد فكرة التصادم التي يعمل **هانتجتون** لترسيخها في الفكر الغـــربي، فالباحثون المنصفون الغربيون حذروا من مخاطر هذه الفكرة عن المواجهة الإســـلامية للغرب ، فهذه الفكرة ليست خاطئة من الناحية التاريخية فحسبن وإنما هـــي خطـــرة كذلك لأنهي تعطى صورة وهمية للعالم الإسلامي بتضخيم المخاوف النفـــسية والعنـــصرية . فالمـــسلمون كما يرى **كارلسون انغمار** مدير التخطيط السياسي في وزارة الخارجية السويدية، ليسوا الآن في موقع قوة، لا في طاجكستان وأذربـــيجان ولا في فلـــسطين والبوسنة، والإسلام والمسيحية تعايشا سويا خلال 1400 سنة،كجارين دوما وكمتنافسين تقريبا ، وكعدوين في مرات كثيرة، غير أن نـــزاعاتهما المريـــرة كانـــت ناجمة عن أصولهما المشتركة ونقاط التشابه بينهما في الأساس.17

والثقافة الإسلامية كما يضيف **كارلسون** ليست غريبة عن الغرب إلى الحد الذي تحـــاول أن تصورها فيه الأفكار المسبقة، ولا سيما أن الحضور الإسلامي في القارة الأروبـــية قد أدى إلى تكامل مثمر بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وغلى نهضة رائدة في شتى المجالات من علم وفلسفة وثقافة وفن، وفي نهاية العصور الوسطى كما يـــضيف **كارلـــسون** شكل الإسلام و اليهودية عنصرين مكونين لأوروبا، واليوم يـــوجد في أوروبـــا أكثـــر من عشرة ملايين مسلم، وتشير التقديرات أن الهجرة المـــستمرة ســـترفع هذا العدد باستمرار ، وبعد خمس وعشرين سنة قد يكون في أوروبا ما بين 25إلى 60 مليون مسلم.

وبغـــض النظـــر عـــن دقة هذه المعلومات فإنه لم يعد في الإمكان تعدد الاتجاه الأوروبي بدون وجود مكون إسلامي أخضر له.18

ولكـــن لنا أن نتساءل لماذا الدعاية لهذه الأطروحة في هذا الوقت بالذات؟ وما هي الدوائر التي لها مصلحة من مثل هذه الأفكار؟

يعتقد **عابد الجابري** أن مهمة كاتب الأطروحة تتجلى في الرد بصورة غير مباشرة وسيبكون بصورة مباشرة فيما بعد على فكرة نهاية التاريخ **لفوكوياما** وهي الفكرة التي تؤكد تفوق الليبرالية بصورة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار الشيوعية.

إن تقرير مبدإ النصر الذي تحقق بصورة نهائية للبرالية يعني بالضرورة أنه لن يكون هـــناك في المـــستقبل خصوم للغرب الذي تقوده أمريكا ، وهذا بدوره يعمل على تجمـــيد وإنهاء المساعدات التي تقدم على إسرائيل بصفة خاصة، لأنه سيغدو من غير الممكن إقناع الناخب الأمريكي و الكونجرس الأمريكي الذي يمثله، بضرورة الموافقة علـــى ميزانية وزارة الدفاع المرتفع جدا ، وما تحويه من مساعدات باهظة لإسرائيل خاصة.

إن هـــذه النتـــيجة الحقيقـــية كما يرى **الجابري** هي التي حركت **هانتجتون** ،أو حـــركت مـــن طلب ذلك ليتصدى بسرعة وعنف لفكرة نهاية التاريخ.19 . وهنا نلمـــس التوظـــيف غير البريء لنزعة دينية مستبطنة في وضع إستراتيجية صدام بين الحضارات .

تـــبعا لا لـــذلك فإننا نلح على تجاوز النزعات الدينية المتحيزة والتي من شأنها أن تـــضطلع بـــدور في غاية الخطورة من حيث محاولتها لتطويع الدراسات المستقبلية لخدمـــة أهـــداف مبيتة والزج بها في تبعية مطلقة لتحقيق أغراض بعيدة عن الفكر العلمي المحايد.

إنـــنا نعتقد بأن لا ينبغي توظيف الدين غير البريء في الدراسات المستقبلية بحيث تـــنحاز هـــذه الدراســـات لأطر عنصرية خاصة من شأنها أن تأزم الوضع وتأجج الـــصراع بـــين بني البشر فالدين له وظائف أسمى تبرؤه من هذه الأدوار والتي جاء ليؤكدها من أهمها:

– **الهـــدف الاجتماعي** :يمثل الدين مستودعا للقيم الأخلاقية، فالدين برأي **كانط** يـــسعى إلى إســـداء خدمة نفعية لا يقدر عليه غيره برعايته لأهم مصالح الإنسانية متمـــثلة في وحـــدة مشتركة للمنظومة الأخلاقية يتلاقى حولها بنو البشر عبر عنها كانت بالقانون الأخلاقي العالمي.

ومع أهمية الأخلاق في المنظومة الدينية ,لدرجة أضحت بعض الديانات منظومات أخلاقـــية خالـــصة تكاد تخلو من إشارات عقائدية كالبوذية فأصبحت عند بعض الباحثين مذهبا أخلاقيا.ولكن هذا لا يعني الادعاء بأن الأخلاق هي جوهر الدين.

لقد شجع المسيحيون الاتجاه الأخلاقي للدين فرسموا للمسيحية أسمى صيغة خلقية، ولكن يؤخذ على هذا الرأي استبعاده للعناصر النظرية و العاطفية في الحياة الأخلاقية أي أنهم يقصون أجزاء من الدين.

إن التأكيد على الواجب الأخلاقي وحده قد ينفي الشعور بالواجب نحو الله و الاستغناء عنه.فالتعاليم ا الأخلاقية الإسلامية ترنو إلى تحقيق سعادة الإنسان بقدر ما ترنو إلى رعاية مصالح الآخرين،وهي كما يذكر **مالك بن نبي** تدفع الفرد على أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى تحقيق فائدة بعينها.20

فالدين ظاهرة سوسيولوجية تضطلع بأدوار عديدة ليست أخلاقية فحسب بل تمتد إلى أصعدة سياسية و اقتصادية، وعلى الباحث أن يدرس هذه الأدوار بذاتها فالمطلوب علميا هو درس ما يحدث في المجتمع ، وتحديد نسبة الحدث الديني وقوته، وتبيان أثره و تأثيره،وخصوصا تأثره بالمجتمع الذي يعتنقه وهذا موضوع علم الاجتماع الديني.

- الهدف نفسي وعاطفي: يضطلع الدين بوظيفة سامية في تلبية حاجات نفسية وعاطفية ،فالطقوس الدينية والشعائر التعبدية التي يقوم بها المتدين لها أبلغ التأثير في تلبية هذه الحاجات ،وفي هذا الإطار تتبلور المواضيع الكبرى للدين كالعبادات،و الطقوس الدينية. تولى الاهتمام بهذا الهدف بشكل خاص علم النفس الديني الغرب.21.

-فكري عرفاني: يسعى المتدين إلى التطلع اليقين البرهاني و الساكن النفس إلى العقد الإيماني في اعتلاق العروة الوثقى فيسمو سره على القدس لينال من روح الاتصال.22.

ومـــن أشهر من عبر عن هذا الهدف الذي يرجى من الدين **هيجل** الذي عرف الدين بقوله إنه المعرفة التي تكتسبها النفس المحدودة لجوهرها كروح مطلق. ويدلل **هـــيجل** على فكرته على أساس أن كل الديانات إنما تتطلع إلى تحقيق اتحاد الألوهية بالإنـــسانية،وبناء علـــى ذلك فإن تنوع الديانات بنظر **هيجل** كأنها مرت بأطوار تدريجية لتحقيق هذه الوحدة حتى نصل إلى المسيحية التي تجسد هذه الوحدة فهي قمة البناء. 23.

والمؤكد أن الدين في تاريخه الطويل ظل بجانب الإنسان يمده بإجابات على الأسئلة ليشبع نهمه المحيرة والمتعلقة أساسا بنفسه وبالعالم ،يتضح ذلك جليا في الديانات السماوية الكبرى.لقد أجاب الدين على أسئلة كثيرة طالما شغلت الإنسان و أقضت مـــضجعه،ومع ســـذاجة الإجابات في بعض الدينات البدائية لا تدعو مطلقا إلي الاستخفاف بالدين .

مراجع البحث

1- ميشيل سالمون،المستقبل،ترجمة وديع حنا.القاهرة: مكتبة مد بولي ص 27.

2- المرجع نفسه،ص 29.

3- ألفين توفلر،صدمة المستقبل المتغير ات في عالم الغد.ترجمة :محمد علي ناصف،القاهرة: مطبعة النهضة ،ط2 1990،ص 29.

4-المرجع نفسه،ص 13.

5-المرجع نفسه،ص 14.

6- المرجع نفسه،ص 2،3.

7- ميشيل سالمون،المستقبل،ص 155.

8- المرجع نفسه،ص 151.

9- المرجع نفسه،ص 151،152.

10- يوسف حسين،البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني سلسلة أطروحات الدكتوراه. مركز الوحدة العربية .لبنان،ط 1995ص 6-7.

11-محمد عابد الجابري،قضايا في الفكر المعاصر،بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية،ط1،يونيو 1997 ،ص 93.

12- مني واصف، الغرب والإسلام على حاشيته صموئيل هانتجتون،هل هو صدام بين الحضارات .القاهرة:دار جهاد للنشر والتوزيع،ط1ن1981،ص 175.

13- المرجع نفسه،ص 176.

14- المرجع نفسه،ص 178-179.

15- المرجع نفسه،ص 198-202.

16- المرجع نفسه،ص 198-200.

17- ماهر الشريف،أطروحة صدام الحضارات ونقادها مجلة النهج .سوريا،عدد 40،سنة1995،ص 202.

18- المرجع نفسه،ص 203.

19- محمد عابد الجابري،المرجع السابق،ص 94-95.

20- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر)، ص248.

21- يوسف شلحت ، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني بيروت: دار الفارابي ط1، 2003، ص 13-14.

22-ابن سينا ، الإشارات، (المطبعة الخيرية،ط1، 1325هـ) ج2، ص104.

23-هانس كينغ،مشروع أخلاقي عالمي، ترجمة جوز يف معلوف وأو رسولا عساف،لبنان ك المكتبة البولسية ط1998،1،ص 229.